رأيت زعيم العراق سنة العشرين

كنت يومذاك في الثامنة من العمر ، وكانت الثورة السورية سنة العشرين قد انتهت بالاحتلال الفرنسي كما انتهت الثورة العراقية بالاحتلال الانكليزي ، وكان من الطبيعي ان يطارد أبطال الثورتين فينأون عن أوطانهم ويخرجون من ميادين النضـــال بالسيف في عرينهم المغلوب الى ميادين النضال بالفكر والقلم ليدفعوا الغلبة عن هذا العرين المغتصب .

وكان سماحة الزعيم الصدر بطل الثورة في وادي (دجـلة) ممن كتب عليهم التشريد فاختاروا سورية مقراً لفتح الجبهة الفكرية من ذلك النضال الجديد الموصول باستقلال العراق .

وقد رأيته هناك وانا في الثامنة من العمر يقود الفكر في جهاد ليست أشق منه قيادة (السيف) في جبهات الفراتين التي تنقـل الصدر بين عجاجاتها الشاحبة المكفهرة على الشاطئين ، ينهد في الرعيل الاول من فرسان الثورة مستخفاً بالجو الانكليزي الذي كان اعنف

ما لقيته الثورة من الاسلحة الحديثة .

رأيته يومئذ فرأيت به زعيما شامخاً بكل ما للزعامة من معاني الشموخ، ثم لم يختلف في عيني من بعد،حين تقدمت بي السن . وقد اختلف كثيرون كانوا كباراً فصغروا ، بل نما هو ايضاً كما نمت مداركي وزادته عقيدته تلك التي تنكر بها لاحداث الاستعمار في نظري شموخاً وارتفاعاً .

قلت إني ادركت وانا في الثامنة من عمري زعامة « الصدر » . وربما أثار هذا القول في النفوس تساؤلا عن أساس هذا الادراك أهو ادعاء مني لعبقرية لا تنتظر من ابناء هذا السن العاديين ؟ أم هو تقرير للواقع في كل صبي صغير يُكبر الرجل الكبير وهو يرى الجماهير تلتف حوله وتتمسح به وتنكب على يديه تقبلها وتحتفل به آناء الليل واطراف النهار لتنشيء فيه الشعر وتنشده ؟ أم هو ما قالته العرب من قبل (كل فتاة بأبيها معجبة ؟) .

هذه أسئلة تجول في الذهن حين يدّعي امرؤ منا انه شهد في الثامنة من عمره حدثاً من احداث البطولة في مثل هذه الظروف التي تكتنف ما ادعيته ، ويطيب لي أن اجيب عن هذه الاسئلة وأنا أطوف بهذه اللحظة بذهنية المحلل المجرد .

والواقع اني ادركت زعامة الصدر ادراكاً لا تنطبق عليه تلك التفاسير كلها . والامر في ادراكي هذا بسيط غاية البساطة ، وهو اني اقتحمت في تلك السن ثورة كالتي جلا عنها « الصدر » من العراق الى سوريا اذ كنت بين اثقال أبي وهو يخوض الثورة السورية ويقودها في عاملة ثم يقر في دمشق منها في الصميم ثم يجلو

عنها حين جلا زعيم العرب المغفور له الملك فيصل الاول .

كنت معه في كل الاهوال من مراحل الثورة ، بل لقد لفحتني المحنة فدفعتني وبعض اخواني وأعمامي ورجال أبي الى الجيش الفرنسي ، فكنا رهائن مر على اعناقنا سيف الجلاد وهو يهددنا بالقتل ان لم ندله على مكان « أبي » .

أقول ذلك لأصل منه الى نتيجة تنكشف عن الجواب الصحيح لادراكي ذاك ، وأنا في تلك السن الصغيرة . ومن الواضح ان صبياً متوسط الذكاء لا يصعب عليه ان يسمو الى هذا الادراك اذا انصهر ذهنه بالنار التي فتحت ذهني بالاهوال ، ولا سيما اذا قدر له ان يُبعث في ملتقى امواج الوعي الثائر كما قدر لي .

ذلك وحده ما أعانني على فهم سماحة الصدر فهماً تجريبياً استفدته من الشدائد ومشيت اليه على الشوك . ولا انسى حين سئلت عن أبي وأنا على نطع الارهاب اني أجبت دون تلقين : « لا أعلم ، ولو علمت لما قلت » .

وبذلك الفهم فقط استطعت ان ادرك شأن السيد الصدر في البطولة ، وان ادرك شأنه في الزعامة اللتين كانتا في لبنان وسورية مطافاً للجماهير .

وما دمت استعرض هذه الذكريات العزيزة المستوحاة من هذه « الصورة » الكريمة أحب ان اكشف عن جانب مجهول من جوانب سماحة الصدر ، وهو جانب قلبه ، ففي قرار هذا القلب ينبوع انساني رقراق فوار تندى به شمائله الفرائد باكرم ما تندى به شمائل زعيم استمد زعامته من « انسانيته » الثائرة لوطن داسته

أنانية الاستعمار ، واعتدت عليه نفعية الاستئثار ، وهي زعامة — فوق ما حاز منها بنفسه — حازتها اليه عوامل الوراثة البعيدة فطبعته على هذا الغرار من النبل والشهامة والرحمة والسمو .

ولقد تعجب ان ترى الرجل الذي تحدثت وقائع الثورة العراقية عن قلب بين جنبيه مقدود من زبر الحديد ان ينكشف عن قلب يجيش بهذه العواطف المتدافعة بغزارة كنت من غرقاها وانا في الثامنة من العمر .

وأعجب ما يلوح لي الآن من تلك النقائض المتنافرة على تكوين شخصية الصدر العظيمة انه كان يعطي لكل حال حقها منصرفاً عما سواها كأنه لم يشغل بغيرها ، فاذا انصرف من ساعة جهاده ذاك الشاغل استقبل الوفود من زائرين دون ان تظهر عليه آثار الجهد العنيف الذي يُطبق عليه في مواقفه الرسمية . ثم اذا انصرف زائروه خلا الى الصغار ممن هم بحكم بنيه في منتثاه بقلب الأب ، معطياً قلبه حقه من التدفق والانطلاق لكأنه يخلو إلا من الحنان والرفق والمطايبة

قد أنسى أشياء كثيرة كانت لها آثار من حقها ان تبقى في حياتي ، ولكني لا أنسى تلك اللحظات الفساح التي رفت منه على طفولتي تلك ، تمائم روحانية كنت أجدها بين جناحيه العلويين وهو يلقيها عليّ بحنان ورفق ودعة ، وحين كان يحاورني بلغته الهشة الملائمة لعقلي في تلك السن ، فيديرها الحديث معي آنذاك بنجاح يوازي نجاحه حين يدير الحديث مع أقطاب السياسة في المشاكل العليا .

ذلك جانب غير مسجل من هبات الصدر ، وهو جانب ذو شعبتين نرى في احداهما الحنان يتلألأ في نفسه تلألؤ المعين

المسلسل ، والحنان في الزعماء عنصر مصلح لا بد منـــه في رجال الاصلاح الوطني لأنـــه مقر للشعور بالاماني الشعبية ووسيلة للاحساس بها دون تأثر بالمصالح الاجنبية .

ونرى في الثانية شخصية مطمئنة يسيطر عليهـا عقل قوي جبار يوزع حديثه باطمئنان وتوفّر ، وفق الاحوال المختلفة الأهمية في موضوعاتها المتفقة الدلالة على جوهر سعته وتوفره على ارضاء تلك الاحوال بالحوار المستمد من بحثه الدائم عن الحقيقـة في كل امر .

ولم اكن عابثاً حين عرضت لحواره معي وانا في الثامنـة من العمر ، فالنجاح في (نفسية) الطفل المقابل بالنجاح في معرفة حل المشاكل العليا امران متصلان اتصالا وثيقاً في تكوين الفكرة الصحيحة عن شخصية (الصدر) وهما متصلان اتصالا وثيقاً كذلك في شخصية (الزعيم) – كل زعيم – يربي امة ويقود مصلحة وطنية ، لان الاطمئنان الفكري الذي يتيح له الانصراف الى هذا المظهر والى ذاك كل على انفراد شرط في سلامـــة التفكير لمثل العمل (الاصلاحي) الذي خلق السيد من أجله ، هذا فضلا عما لمعرفة (نفسية) الناشيء بصورة خاصة من اتصال بهذا العمل العظيم .

واجب – بعده – ان اشير إلى المرحلة التاريخيّة التي تذكرني بها هذه الصورة المطبوعة في نفسي من يومي ذاك ، لتكون مصدراً لما اتسع لي أن أقوله عن هذا الجانب من جوانب (الصدر) .

أما الذي كنت اراه وأحسه فلا يعدو ذلك الزحام الشديـــد حول سماحة الرئيس في خطواته المعدودة . كان يستقبَل كلما أقبل على بلد في لبنان أو سورية استقبالا عظيما يعبر عن جهاده وزعامته ،

وكان مجلسه يغص بالوفود والمنشدين ، وكان اذا خرج من مكان الى آخر تحتشد في طريقه الجماهير وتمشي بين يديه المهرجانات .

هذه هي الصورة التي كنت أشهدها ولو شئت لماشيتها بما يطيل على القارىء حديثاً لايخلو طوله من لذة ، وأمـــا ما لم أحط به في حداثتي فقد كان هو مصدر الزحام الذي شهدته .

لبث سماحة الرئيس في منفاه ذاك سنة ، فما أدري تزيد يوماً أو تنقص يوماً . وكان سماحته أحد ستة عشر من رجال العراق انتخبوا للمطالبة باستقلال العراق والذياد عنه ثم كان أحد اثنين ثانيهما المغفور له يوسف السويدي انتخبا من الستة عشر لقيادة الحركة الوطنية في الاوساط الدولية .

وقد أقام سماحته في سورية تلك الفترة فاتصل خلالها بعصبة الامم وبالدول الكبرى معبراً عن اماني البلاد بقوة وصلابـــة لا هوادة فيها ، ثم عقد في مصر مؤتمر برئاسة الجـــنرال (اللنبي) للمفاوضة مع سماحتـه وصحبه من الاحرار في مطاليب العراق . وقد طلب الجنرال من سماحته الحضور ، غير انه ابى ذلك حرصاً على سلامة المطاليب ،واكتفى بالمفاوضة التحريرية ، وكانت الرسل تختلف بين العاصمتين دمشق وفيها مجاهد العراق ، والقاهرة وفيهـا هيئـــة المفاوضة الانكليزية ، وكان الرسل أولئك يحملون نتائج المفاوضات اخذاً ورداً بين الطرفين حتى حصل العراق على الوعـد القاطع بالاستقلال .

وكان المغفور له الملك حسين مؤسس النهضة العربية عقد أثناء المفاوضات مؤتمراً عائلياً قاصراً على الامراء من اشباله الميامـــين

المفاوضة بشؤون البلاد العربية في تلك اللحظـــة . ودعي سماحة (الصدر) الى حضور هذا المؤتمر ، غير ان الشأن في المفاوضات كان من الخطورة في دمشق حيث منعه عن الشخوص الى الحجاز .

وتكللت مساعيه الجسام يومئذ بالظفر ... الظفر النسبي لتلك الوثبة الواعية التي جرّت وراءها الاستقلال الذي رمقته البـــلاد العربية بعدئذ، وجعلته نموذجاً لمطالب جهادها المقدس .

وكان مما توصلت اليه حلول المشكلة التي تأزمت بين العراق والانكليز تتويج جلالة المغفورله الملك فيصل الاول، وتقرر ان يعود احرار العراق الى وطنهم ، وفي طليعتهم سماحة الصدر بالملك المتوج رحمه الله .

واعدت في (السويس) الباخرةُ التي تحمل الوفد الظافر ، فاذا ركبوها مروا بجدة ليحملوا المليك العربي الضخم .

ثم انتصر (الثغر) في يوم صائف وهلهلت آفـــاق العراق في استقبال الزعيم في حاشية المليك ظافرة منتصرة

ومشى الركب من البصرة الى بغداد في الميادين الحمراء تباركه ارواح الشهداء الكريمة ، وتصفق له مهرجانات الشعب المناضـل .

وحين اغمض عيني ارى بغداد مضفورة الاكاليل في تحية بطلها الذي حسها وحمسته ومشت بين يديه تنادي باسمه وتهتف بزعامته

وها هي ذي تستقبله فتستقبل مجدها الذي تصلب وانتصر .

ولكن الأمر لا يطول فقد اصطدم بالمصالح الانكليزية ، مرة اخرى ، وكانت هذه المصالح تصطنع (المجلس التأسيسي) لحمايتهـا وتذب هنا وهنـــاك بنشاط يعتمد على ركني السياسة الانكليزية

التقليدية في الفترات الصعاب وهما (الرجاء والخوف). غير ان السياسة الانكليزية لم تُثنَ باصلب عود من سماحة الصدر ولا ارسخ عقيدة . وكان من الواضح بعد ان بسط الانكليز ظلهم على العراق وتمكنوا من القبض على نواصيه واعرافه ان ينفى سماحة الصدر ، اما العودة الى السيف فقد كان البر بالدماء يمنعه منها إذ لم تكن التضحية يومئذ مرجوة لغير الخسارة .

وهكذا ازاحته المصالح الانكليزية من طريقها بالقوة وأبعدته عن عرينه ليخلو لها الجو ، وبعد ان (باضت وصفرت) عاد سماحته بعد سنة ليتبوأ مكانه من قيادة الجبهة الوطنية بمواهبه الملهمة وعقله النفاذ البعيد الغور . وكان في هذه المرحلة اقرب الى سياسة الايجاب منه الى سياسة السلب لانه رآها انجح في الوصول الى ما يريد لهذا الوطن العزيز من العزة والسياسة والاستقلال .

ولكنه مني خلال الحكم الذي يسمى (وطنياً) بصنوف من العقوق وأشكال من الحرمان تدل على نجاح السياسة الانكليزية في افساد الاخلاق وتفكيك الاوصال وتسميم الافكار ، وهي وسائل الانكليز الى السيطرة والاستيلاء .

وكاد الامر ينتسى لهذه السياسة التي انشأت اعواناً لها ونجرتهم كما تشاء ، غير ان السيد ظل — على ما يبدو عليه من الاعتزال اخيراً — يجاهد بصمت غير متعرض لزحام الثناء مرضياً في ذلك ضميره وحبه لوطنه .

ومرت خلال فترة الحكم الحديث انقلابات عدة لسنا الان في صدد تاريخها ، فهي معروفة كان محله منها محل الملاذ وذلك ما يدل

على رسوخ زعامته من جهة ، وعلى جهاده الصامت من جهة اخرى. وكان آخر انقلاب انجى فيه الوطن من الخطر المحـــدق انقلابنا الواعي الاخير الذي رأينا فيـــه الشعب برمته يختاره دون سواه لقيادة هذه المرحلة الصعبة .

هذه صورة سريعة أوحتها إلي ذكرى نشأت في حداثتي، وطافت منذ نشأت حتى يومنا هذا بفنون من الحوادث وصور من الظروف قضت على كثير من مشاهير الرجال التقلب فمسخ خلالها من مسخ واندحر من اندحر وشاه من شاه إلا الصدر ، فقد ظل عملاقاً ظافراً وضاحاً ، ولا اعرف لذلك سببا غير انه (زعيم) يخفـــق صدره بالحب الدائم لهذا البلد، ويرتعش ضميره بخيره في مختلف الظروف .